

## روح القصة في الادب الحديث

لحسن محمود

كنت في احدى الليالي جالسا في مقهى مع جماعة من الادباء وتناثر الحديث فاصطنع كل واحد منا واحداً من الجماعة يتحدث اليه في صوت رفيع ومال الي احد افراد الجماعة يسألني ماهي الكتب التي قرأتها في السنوات الاخيرة فوجدت فيها اكبر مثال للزعة الحديثة في الادب القصصي فخذت ورقة امامي وانتضيت القلم واخذت ارسم خطوطاً ورموزاً في غير قصد كي يكون لدي مجال للتفكير فالتفتي وانطق بقول حرت في الاجابة ولكنني رأيت ان اترك الامر للعاطفة بدلاً من الفكر فاذا هي تملي علي اسماء لكتب اربعة ظهر بعضها منذ سنوات وظهر البعض في السنتين الاخيرتين وهذه الكتب بحسب ظهورها رواية توماس مان الالماني التي اسمها « الموت في البندقية » ورواية اندريه جيد الكاتب الفرنسي التي اسمها « المرزفين » ورواية « الامواج » لفرجينيا وولف الكاتبة الانجليزية ورواية « عالم جديد جريء » لآلسن هكنلي

وما ان كتبت هذه الاسماء الاربعة حتى عجبت لنفسي لانني لم اضح بين هذه القصص قصصاً كنت ولا ازال اعجب بها واتخذها مثلاً للادب الحديث : فلماذا لم اختر كتاباً من كتب د. ه. لورنس مثلاً ؟ ولماذا لم استشهد بمن جيس جونس في رواية « عوليس » ؟ لتستطيع ان تقول ان توماس مان كسر في قصة « الموت في البندقية » قيود القصة القديمة كما فعل مؤلف « عوليس » الذي حاول ان يصور حياة مدينة بأسرها في اقصر من يوم وليلة ويرسم كل ما يمر بخلد رجل في اثناء تفكيره ، عجبت لنفسي اذ وضعت قصة نشرت في سنة ١٩١٢ مثل قصة « الموت في البندقية » الى جانب قصة نشرت في سنة ١٩٢٥ مثل قصة « المرزفين » الى جانب قصتين ظهورتا في السنتين الاخيرتين وعجبت لنفسي اذ لم اميز بين قصة قصيرة مثل « الموت في البندقية » وبين قصص طويلة من النوع الذي اسطلمحواعل تسميته بالرواية

كل ذلك اخذته على نفسي ورأيت اني ربما تسرعت في الحكم وآرت مجرد الميل على الوصول الى الحقيقة. ولكنني كلما اطلت التفكير وجدت ان اختياري لم يكن عبثاً وانني اذا كنت قد اغفلت روايات فيها مثال حي للزعة الحديثة فبعدت عن لورنس وادبه واغفلت جيس جونس وتعقيداته

واهمت مارسيل بروست ودفاعته انفسية تأتي لم تكن في اختياري غير موفق ولم تكن عن الصواب بعيداً

ربما كنت اجد في لورنس ما يتخذ مثالا للزعة الحديثة : في « قوس المطر » وفي « عصا هارون » بل أكثر من ذلك في « الثعبان ذي الريش » ، ففي لورنس نجد زوات حديثة بادية في أكثر صفحاته — وان صياحته ودوراته حول اللذة الجسدية وتمجيده لها وحرقة البخور دائماً امام آلهة الحب واللذة زعة حديثة من زوات هذا العصر وانه لمن المستطاع ان نقرأ ما نشأنا من ادب عصر الملكة فيكتوريا دون ان نجد اثرًا لتلك الزعة ، قد نجد تيارات قليلة دائمة في جميع عصور الادب ولكنها تيارات خفية وربما قبل ان النزعة الواقعية تصف نقائس الناس ومثالبهم وتصور الامور بحيث لا ترحم سرًّا ولا تكتم تفسيلًا ولكن النزعة الواقعية تفعل ذلك ابدأ عن غرض هو تصوير الحياة الواقعية بحسب ، فليس في ادب القرن التاسع عشر — فيما عدا المطلاع التي تسبق العصر بزمن مديد — ما يشبه دعوة لورنس وليس لورنس وحده بل البعض من معاصريه ايضاً ، وتمجيد اللذة الجسدية واتخاذها قاعدة للحياة هي زعة حديثة بلا ريب ولكن ما اخطأ فيه لورنس هو اختباره ان اللذة الجسدية هي القاعدة الوحيدة للحياة انما نعيش من اجلها او يجب ان نعيش من اجنها ، وانما نحوت من اجلها او يجب من اجلها ان نموت. وفي ذلك كان لورنس يعارض ادب العصر السابق له الذي تجرد من اللذة الجسدية لو لم يذكرها الا في معرض النتم ولكن لورنس ذهب الى أبعد من ذلك فقد اتخذها ديناً ونسب نفسه لهذا الدين كاهناً ومبشراً وتكلم عن هذا الدين بتعصب اللطاة الاول من عقيدة ثابتة فيما يبشر به ويدعو اليه وربما كان مبلغ هذا التعصب ومداه ناجماً عن علة تسمية كما يقول البعض ليست هي الاغراق في معرفة اللذة وانما هي الحرمان من معرفة اللذة وربما كان لعللة تسمية اخرى ولكن معها يكن الامر فان دعوة لورنس لاقت نجاحاً وصار للدين اللذة مكان محترف به في العالم الادبي الحديث ولكن حسن الحظ لم يأخذ العالم بمقاييسه فقد قبل التعاليم على أن يضمها الى عقائده الاخرى ، فليست اللذة الجسدية إذن — وهي الطابع الغالب على مؤلفات لورنس — هي ما يريد ان نعتبره زعة حديثة فقد يكون الاحتمام باللذة الجسدية احدى النزعات ولكننا نبحث عن روح الادب الحديث وزعته في تياره الأكبر

وفي مارسيل بروست اين نجد النزعة الحديثة ؟ نحن نعلم ان بروست اختط في قصته خطة تكاد تكون فريدة وعرض لنا صوراً في طريقة غريبة ابتدعها فقد رسم لنا حياة مارسيل ويطرقت فنته وهو طفل ينكر تفكير البطولة المحتر وفي منزل سوان ذلك السيد البسيط الذي كان صديقاً لأمير من أكبر الامراء وصوّر لنا حياة ذلك السيد يتقلب بين الشك والغيرة وصوّر حب مارسيل للجنيرت وخيبته ثم رغبته في التخلص من شيخ هذا الحب ثم تقلبه في شمس اللوحة جرمات وما يحوضها من جو استقراطي يعرفه بروست حق المعرفة وما فيه من ديدان مزخرفة وحشرات مذهبة ووصف

لنا حياة شارليس العجيبة وميوله الرائجة يحمل سرًا خائفًا منظرًا مهدم الأعصاب  
هذا الفن قائم على التحليل الدقيق السهب الى درجة الاملال وان كان شديد الجاذبية فذلك  
النقص المستر وتقليل الجسد وما يدخل الجسد ويحسر كل جزء بمنظار — ذلك العزف على وتر  
واحد وتكرار نغمة واحدة ، وتلك الصور المتتابعة في اسلوب مشتمل معقد ان هو الأثرقة حديثة  
في الادب . ولكن هل هي روح العصر الحديث ؟

ثم جيس جويس الذي يشبه بروست في طريقتة بعض الشيء وان كان يختلف عنه في نواحي  
متعددة ماذا يظهر لنا من عناصر جديدة ؟ انه يروي لنا قصة يوم واحد او اقل من يوم من حياة  
رجل عادي من اهل دبلن هو المستر بلوم اليهودي الاصل الذي جاوز الاربعين من العمر وهو رجل  
مرهق بعمله اذ هو منظم اعلانات ومحكم هذا العمل ينخل هذا المنجر وذاك ويحكم هذا العمل  
يكون مع الناس رفيقًا ولهم مدهانتا ، ثم يصور لنا الكاتب امرأته الحناء التي تحونه وتتخذ خيلاً  
بعد خليل وهو حزين لذلك مهوم ولكنه لا يجرؤ على اتخاذ خطوة حاسمة لانه لا يجد في نفسه  
من علام الرجولة مايساعده على ذلك وري صورة متينين بدلوس الذي عرفناه في صباح في رواية  
سابقة لجويس وصف فيها حياة هذا الصبي وهو يتعلم في المدارس ورأينا عوه الذهني والجسدي ،  
وهو في رواية «عوليس» نرى يستعد لاقام دراسته في فرنسا وتنتج في هذه الرواية حركات بلوم  
في يومه وزاه ينتقل من مكان الى مكان ويقوم بأعمال عدة أكثرها بعيد عن عمله حتى ينصرف الى  
سقين اي حتى يعثر تلياك على عوليس كما في «الاولدية»

\*\*\*

اراد جويس ان يصور لنا حياة رجل في اقل من يوم وليلة داخل المدينة ولكنه اراد اكثر  
من ذلك ان يمس لنا حياة مدينة عظيمة ساخبة بحسناتها وذنابلها . ثم اراد ابعد من ذلك ان  
ينقل الصور التي تمر في مخيلة العقل الانساني وهو في غمرات الحياة ، وهذا مادعا جويس الى ان  
يخلق لنفسه اسلوباً جديداً سلباً بالاستعارات والتشايه والاشارات الى حوادث ماضية وهو اسلوب  
يصعب تتبعه ولكنه ابتدع ليؤدي الغرض المقصود منه وليس أدل على صحة هذا القول من المقابلة  
بين اسلوبه في مجموعة القصص المسماة « أهل دبلن » وبين أسلوبه في «عوليس» ثم بين أسلوبه في  
«حياة الفنان في صباح» واسلوبه كذلك في «عوليس»

ولا ريب في ان تعقد الاسلوب ظاهرة من ظواهر الادب الحديث وهي نتيجة للتعق في  
التحليل النفسي ونجد هذه الظاهرة واضحة في كل من بروست وجويس وقد بنيت على فكرة جديدة  
في فن القصة . فالكاتب المخلعون يذهبون ان القصة كما تراها في الكتابات التي يسيرون على المبدأ  
التقديم ان هي الأ نتيجة الانتخاب والاختيار فالروائي يختار ما يريد ان يقوله عن شخصيات روايته  
ويكتم ما يريد ان يقول ويصف جوانب منهم ويسكت عن جوانب ويتكلم عن مواقف ويهمل

مواقف يفوق أحياناً ويخطئ أحياناً وهو في الخالين ثابت بجزء كبير بل بالجزء الأكبر من الحقيقة بخلية ، فصور الكاتب في روايته ان هي الأ صور مبتورة واذا بدت للقارىء صوراً كاملة ، واذا بدت له في ثوب الحقيقة فتما ذلك نتيجة عمل ذهني كان من الاول ان لا يتحدث وهذه النظرية هي بلا ريب خطوة نحو الطريق الصحيح وبها اخذ الكتاب في الادب الحديث بوجه عام غير ان البعض تطرف فيها والبعض لم يتطرف ومجد عناصر هذا المذهب في لورنس ومجد استملاً مستمراً له في جويس وفرجينيا وولف وبروست على اختلاف في كل منهم ومجد تطرفاً في استعماله في رواية كرواية « الحج » لسز ريتشاردسن التي سجلت فيها حياة بطلا روايتها « مريم هندرسن » فأخرجت عشرة اجزاء من هذه الرواية ولما تبلغ بطلا الرواية سن الاربعين . وقد يكون لنا ان نساؤل هل وفقت مسز ريتشاردسن حقيقة في تسجيل هذه الحياة تسجيلاً دقيقاً وهل يمكن لكاتبهما ان أغرق في هذه الطريقة ان يصل الى ان ينبت كل شيء ؟ عقيدتي ان ذلك ليس مستطاعاً

فالاختيار اذن قائم دائماً ومسز ريتشاردسن نفسها لا تستطيع الا ان تكون كغيرها من الروائيين يتبين لنا الآن في وضوح مدى الملافة بين هذه الطريقة وبين ما يقصده اطباء النفس على طريقة فرويد فالمسلك في الخالين واحد والفرق متشابه : الاطباء يتطلعون الى الوقوف على خفايا نفس العليل فيطرحون عليه في جلساتهم اسئلة عدة يحاولون بها ان يستطلعوا سره الكين فيقتربون من موضوع هذا السر أحياناً ثم يتعدون بقدر ما يجدون فيه من استعداد الى ان يوفقوا في معرفة سر الداء وسبب العلة والكتاب الحديثون يسجلون الدقائق والتفصيلات بأسهاب للوقوف على علة الحوادث

\*\*\*

كل هذه النزعات المختلفة تؤثر بلا ريب في سير الادب الحديث ولكنني لم ارد ان ادرى فيها ما يدل على الروح الحقيقية للادب فان هذه الروح في خلاصتها هي شيء ابعد من ذلك ، لقد ادرت نوعة خفية تمثل فيها تسمية العصر وهذه النزعة وجدتها في القصص الاربعة التي اشترت اليها قصة توماس مان عن « الموت في البندقية » هي بلا ريب من خير القصص التي التت في هذا القرن حتى لتكاد تبلغ حد الكمال ولما نجد لها مثيلاً في روعة الاسلوب على بساطته وموضوعها وحلة رجل مكودود جاوز الستين مدير لمصرف ثلثي ارضي العمل جسمه وحطيمه عصابه مال الثروة والجاه ولكنة في سبيل ذلك كاد يفقد الحياة فهو يرحل الى البندقية ليل شمس ايطاليا ومجاهها بعيدان اليه شيئاً من الصحة التي يلتصقها وقد وجد الراحة الجسدية ولكنه وجد تعباً نفسياً فان صاطفة غريبة غير معقولة تولدت فيه هي اهتمامه بسلام في نحو الحادية عشرة من عمره اهتماماً لا يدري هو سببه وازدياد هذا الاهتمام الى ان صار شاغلاً لتفكيره فلا يطيب له شيء غير مراية

الغلام مراقبة دائماً ، وانتشرت الكوليرا في أثناء ذلك بمدينة الهندية فأمرع الاجانب الى الرجل عنها وبزمع اهل الغلام الرجل فيذهب الرجل المحطم ليرقب الغلام في سفره ويودعه باخر نظرة فيجلس على مقعد وعينه لا تتحول عن غلامه الذي لم يتصل به قط ولو بكلمة واحدة ويتحرك القطار فاذا الرجل يرتقي على المقعد مبتاً

\*\*\*

لم يخرج توماس مان في وضع هذه القصة عما هو بألوف ولكن فيها الروح الحديثة التي نشير اليها لا نسي ذلك الحب غير الطبيعي الذي شعر به رجل جاوز الستين لغلام في الحادية عشرة من عمره ، حب لا يمكن ان ينشأ عنه شيء وليس له غاية وانما التي نضيه هو تصور ذلك التعلق والاضطراب النفسي الملازم للحياة الحديثة فهذا الرجل كان يريد الراحة في من يستحق فيها هذه الراحة ويريد ان يخلد الى السكون في وقت يجب فيه السكون ولكنه بدلاً من ذلك لا يجد غير التعب الذي خلقه لنفسه كأن الحياة في ضجتها وصخبها وسرعها تأتي ان تعرف الراحة فاذا كان العالم قد فقد البساطة وتعددت وسائله المادية فان النفس تأتي الا ان تعبر معقدة شأن الحياة المادية فالانسان لا يستطيع ان يحول دون خلق المتاعب والمشاكل لنفسه والادباء الحديثون لا يستطيعون الا ان يصوروا هذه الحيرة وهذا الاضطراب النفسي

أما رواية « المزينين » لاندريه جيد فهي جديدة في كل شيء سواء في ذلك موضوعها او اسلوبها الفني وهي ليست كالروايات العادية اذ لا نجد لها موضوعاً او نظاماً متتابعاً او فكرة ظاهرة محددة ويعالج المؤلف كثيراً من الموضوعات في الحوار التي يدور بين اشخاص وأم شخص في الرواية هو ادوار الروائي الذي يؤلف رواية باسم « المزينين » ومن ذلك زى ان المؤلف انما اراد ان يصور نفسه في صورة بطل روايته وزاه يروي لنا حوادث هذا البطل احياناً وأحياناً ينقل مذكراته ، واشخاص الرواية مجردون مجرداً ناساً من الراح انطلق ولكنهم يمثلون فكرة أكثر مما يمثلون احياء ومع ذلك نرى هذه الرواية تمثل الحياة العصرية حق التمثيل بصخبها وضجتها ، باضطرابها وحيرتها

واذا رجعت الى رواية « عالم جديد جري » نجد لونا آخر من الوان الفن الحديث هو الفكاهة المزروجة بالسخرية فقد اراد منا الدس هكسلي ان زى العالم كما يبدو في المستقبل اذا تطورت الامور تطوراً منطقياً وفاقاً لبعض الآراء التي يقول بها بعض العلماء اليوم ولا ريب في ان هذه الرواية العجيبة بعالمها العجيب ان هي الا تعد لاذع في قالب روائي للزرعة المادية التي يزرع اليها العلماء ويتطرف فيها بعضهم وميل بعض هؤلاء العلماء الى الاغراق في الاستنتاج وتسيانهم الواجب الاول في البحث العلمي وهو ان يحافظوا اشد الاحتياط في ابداء آرائهم وان لا يسلخوا

برأي الآ بعد ان تثبت لهم صحته بالتجربة العملية الصحيحة . لقد تمكن العلم من هدم اركان الاوهام وازال دولة الآراء والاعتقادات التي لا تقوم على اساس ونال العلم نصراً كبيراً ولنسكن كيف كان ذلك ؟ لم يكن العلم لينجح نجاحاً يذكر لو لم يتم على طرق البحث التزميه المجرد من اية غاية الا الوصول الى الحقيقة او الاقتراب منها فاذا حاد العلم عن هذه الخطوة وأخذ يدفع في طرق الحسد والتخمين فانه لا بد فأنه مكاتنه بين الناس

ففي هذه الرواية كما في سائر روايات الدس هكسلي زعنة داغمة الى السخريه القاسية المرة وما يترخذ عليه دائماً جفاؤه نحو شخصيات رواياته على ان موضوع هذه الرواية بطبيعتها مما يلائم الدس هكسلي ويظهر بجلاء جوانب عبقريته

ان الدس هكسلي اتى في هذه الرواية بشخصية فذة هي شخصية الشاب المتوحش الذي نشأ بين القبائل الطمجية يتكلم لغة الإنجليزية غير لغة الناس الذين نشأوا في « العالم الجديد الحريء » فرلوا في المعاصح ودبت فيهم نسمة الحياة نتيجة لتفاعل كيميائي فهو يتكلم لغة تعلمها من كتاب مجهول عثر عليه لشاعر اندرو ذكره وعفا اثره لان المدينة التي يصفها هكسلي تأتي الاتصال بالقديم وهذا الشاعر هو وليم شكسبير

في هذه الشخصية زى ان الروح الحديثة التي رأيناها في المثلثات السابقة زى التردد والحيرة القريبة من اليأس على ان انكاتب ابتدع لها سبباً معقولاً وعلّة مقبولة وكيف لا يكون الشاب المتوحش في حيرة من امره وهو يرى كل ما يحوطه غيباً بحيث يصعب عليه فهم الامور كيف تجرئ وفهم الناس كيف تفكر : ان طالتالم يبلغ بعد ملغ هذه الحياة المعجبة التي وصفها هكسلي في روايته والتي ينتظر ان يصل اليها الوصحت احلام بعض العلماء ولكن طالتنا الآن بما هو فيه جدير بأن يكون موضع الحيرة

\*\*\*

وفي رواية « الامواج » لمرجينا وولف ماذا زى ؟ هل زى شيئاً غير هذه الحيرة في فهم الحياة ؟ وغير هذا التلق الذي استولى على النفوس ؟ نصف الرواية حياة اشخاص وتبعهم وهم اطفال وهم صبية وهم تتيان ثم وهم رجال ثم شيوخ تتلقفهم الحياة وتطوح بهم الى هذا الناطق أو ذاك كما تفعل الامواج وهم قد يناضلون حيناً ويهانعون ولكن بحر الحياة المترجرج أقوى منهم وأعز سلطاناً

إن هذا الكتاب ان هو الا نشيد موسيقي يعزف على آلات عديدة متنوعة الاصوات صاحبة احياناً وهادئة احياناً وقد يكون في آخر نغماته روح الاستسلام ولكنه استسلام الحار الذي اراد ان يعزف الحقيقة فعجز عن استجلاء السر